المسرح الشعبى

- ثبت من متابعتنا لتاريخك الفنى أنك شغوف بالمسرح الشعبي.. كيف تم ذلك وما هى خبراتك ومعرفتك به ومصادرك ؟! .

كل إنسان مصرى فى داخله ما يشبه الباحث الفولكلورى، كل إنسان مهتم بالثقافة الشعبية سواء نشأ فى حى شعبى بالمدينة أو فى إحدى القرى أو فى نجوع البادية أوعلى السواحل، فإنه – رغماً عنه أو على غير قصد منه – سوف تتشبع حواسه بالصور الباكرة التى طبعت نفسها على حدقة عينه وداعبت اسماعه ورسخت فى ذاكرته وهزت كيانه الجسمانى بفضل فنون الحركة والإيقاع التى تكتظ بها حياتنا فى كل مكان.

وتعود بى الذاكرة إلى مدينة المنيا التى نقلت الأسرة إليها نحو عام ١٩٤٢ حيث كان يعمل والدي، فأذكر أننى إنجذبت لأصوات حادة من أراجوز أو زمارة الرجل الذى يحمل صندوق الدنيا، فدخلت ضمن عدد من الأطفال تحت ستارته وأنا أرى صوراً لشخصيات لم أصادفها فى الواقع وكان يتحدث عن أشياء غامضه بالنسبة لى أثناء إدارته للشريط المركب على بكرات جهاز صندوق الدنيا أو(السفيرة عزيزة) فرأيت صوراً

مكبرة لشخص كثيف الحاجبين المتصلين معاً مع شارب أسود كل طرف فيه على هيئة سيف !! هذا هو أبو زيد الهلالى أو دياب بن غانم أو الزناتى خليفة.. ثم أطلت علينا صورة لفتاة جميلة لعلها السفيرة عزيزة أو(سُعدى) ولم تدم هذه السعادة بالنسبة لي، بعد أن جمع الرجل ما أرضاه من الأرغفة وكيزان الذرة والملاليم من أكف الأطفال الصغار، ثم كان هناك أيضا نوع من الطبل البلدى فوجدت نفسى أرقص وأتمايل مع إيقاعه، وإذا بشخص يرفعنى من على الأرض إلى الهواء، فحركت رجلى ويدى علامة على الاحتجاج لأننى كنت أريد أن أواصل هذا النوع من الانسجام، كان صديق لوالدى هو شخص ودود أذكر اسمه حتى الآن (توفيق الإسكندراني) غضبت منه غضب الأطفال حين ينزعون منهم لعبة أو جوًّا يستهويهم، كانت هذه (الزيطة) عبارة عن ملامح باهتة متبقية من مولد (الشيخ ترك) أضف إلى ذلك علاقة خاصة ربطتنى مع الشيخ (عبد الحميد) مؤذن الجامع وكان كفيفاً أدركت رغم طفولتى أنه يتعثر حينما يضع رجله اليمنى على الرصيف المؤدى إلى باب (الميضه) وهو نفسه المؤدى إلى سلم المئذنه فبعد أن (أسحبه) من كف يده الحنون إلى هناك يعطينى قطعة حلوى تسمى (أرواح) وقد دهشت كثيراً حين قال لى: خد يا مهدى. فسألت نفسى: كيف عرف اسمى؟ وكنت أنتظره حتى ينهى الأذان كى التقط يده مرة أخرى حتى نهاية الرصيف لأجعله يهبط بسلام، كان أذان الشيخ عبد الحميد يهزنى بصوته الشجى وكلماته التى لا تخلو من روح الشعروالخيال حين يقول:

يا مليح الوجه

يا كحيل العين

يا رسول الله

فكان يرسم فى مخيلتى صورة جميلة للنبي، هنا ارتبط عندى الصوت الجميل والأداء الشجى بصورة من الخيال، هذا أمر لا إرادى يحدث للبشر سواء كانوا صغاراً أو كباراً.

بعد ذلك أخذتنى أمى لمشاهدة مولد (الفولى) وهو أبرز الأولياء فى محافظة المنيا التى كانت تشتهر بزراعة (الفول والملانة والترمس) وكلها أشياء محببة للطفولة عموماً، وفى هذا المولد كانت أمى تعطينى أشياء من هذه اللذائذ فارتبطت لدىّ متع المولد وأغانيه ومواكبه السعيدة الراقصة، بألوان الطعام غير المألوفة. وفى مدينة المنيا أيضا كانت هناك فرق موسيقية تنفق عليها الدولة منها فرقة (موسيقى السواري) وهى فرقة مزركشة الثياب وأنيقة الحركة ولامعة المعدات، وكانت هذه الفرق تضم مجموعة من الأولاد صغيرى السن مرهفى الحس فى التعامل مع آلات (القرب) يسبقهم لاعب الدبوس وهو شخص قوى الجسم منتظم العضلات يؤدى حركات استعراضية بهذا (الدبوس) الذى كان يلمع فى شمس العصارى ثم يتجه الموكب لكشك الموسيقى المقام بحدائق كورنيش المنيا. ثم تخرج فرقة موسيقية أخرى كبيرة هى فرقة موسيقى (ملجأ الأقباط) وكان يبهرنى صغر سن العازفين وإلتزامهم وإهتمامهم بكل إشارات

المايسترو، وأيضا كانت هناك فرقة موسيقى (المركز) التى كنا نسير خلفها أنا وأخى الأكبر.. حتى تصل إلى منتزه كبير بوسطه كشك موسيقى كبير ذو سلالم، هو منتزه كان يسمى باسم الملك السابق (فاروق) كذلك كانت للمطافئ فرقة موسيقية كبيرة أيضاً.

كانت الموسيقى تجذبنى بشدة حتى أننى حفظت بعض ألحانها وكنت أغنيها لنفسى، فحين كنت أكافح كى أصعد السلم إلى حيث تجلس الفرقة فيما يشبه دائرة يقودها ضابط الإيقاع ورئيس الفرقة، الذى لاحظ كفاحى من أجل الصعود إليهم رغم عجزى الجسمانى كطفل واهتزازى لألحانهم وموسيقاهم، فكان الرجل- ما أن يرانى - حتى يشير للفرقة أن تتوقف عن العزف كى يحيى هذا المستمع الشغوف، ومرةً فمرة كان يسألنى ما معناه (تحب تسمع إيه؟) فكنت أهمس فى أذنه بعنوان لأغنيتين الأولى هى (يا نخل بلحك بينقط سمن وسكر) والثانية (قطعنى حتت أنا ملك إيديك ... وعنيا حكت كتير لعنيك) وكنت أضيف إليهما أغنية أخرى لا أدرى كيف علقت بأذنى، وهى أغنيه كنت قد سمعتها بجوق شعبى جائل فى (حارة الحرفيين) بالمينا التى تسمى (الدّرابه) وهى؟ أغنية:

يا أبو العيون السود

ياللى جمالك زين

ميتى الوداد يعود

ميتى يا نور العين

جلبى عشق جلبك
ولا لوش حبيب تانى
ليه يا جميل صديت (يقصد الصد)

ولكن لفظه صديت كانت تدهشني! وأتساءل فى داخلى عن معناها: لماذا يحب الحبيب حبيبه وقد ناله الصدأ؟.

قضينا فى المنيا نحو عامين حفلا بالانطباعات الأولى فى الذاكرة السمعية والبصرية بكثير من الملامح الشعبية والفنون الأخرى، خاصةً فى عيد شم النسيم على كورنيش المنيا الذى ينطبق عليه تعبير (بساط سندسى أخضر) ولكنه بساط ملئ بالفرح والسعادة والجمال.

ولاحظت أيضاً أن الجنينة (منتزه فاروق) قد تغيرت تماما. ولم تعد موجودة الآن فقد بنيت مكانها مساكن شعبية كالحة وعفنة.

وحين نقلت الأسرة- نظراً لعمل الوالد- إلى الأقصر حدثت لى إذا جاز التعبير صدمة جمالية رائعة، حين شاهدت نيل الأقصر ومراكبه الشراعية وملاحيه السمر الذين يضعون جلابيب التيل على أجسادهم الضئيلة العفيّة خاصة حين يصعدون صوارى القلاع وهم يغنون كأنما يرسلون أصواتهم إلى الشمس، وأمام الأسوار الحديدية التى تفصل المقابر القديمة عند الواجهة الشمالية لمعبد الأقصر كنت أقف طويلاً حائراً فى صمت ولكن فى داخلى عواصف من الأسئلة! أحاول أن أفسر لنفسى أسباب ضخامة هذه التماثيل، ومن هم؟ وأين أصحابها؟.

بعد ذلك بسنوات أكتب كلمة البانفليت المخصص لفرقة جديدة للفنون الشعبية بالأقصر فكتبت: «الأقصر مدينة الشعراء والفرسان والأحلام والأساطير، أيتها المدينة الذهبية، أى فنان قد فرّغ الكون من حولك، فأبقى أصابعه العملاقة أعمدة موّشاة بالجمال. تلك المدينة التى لاتخاطب الآن فقط، وإنما تكلم الخلود.